مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ ISSN: 1112- 7872
E-ISSN: 2600-6162
مجلد: 14 عدد:02 جوان 2019
العنوان: *جدلية الذكورة والأنوثة في العائلة التقليدية..* ص.ص88-108.

جدلية الذكورة والأنوثة في العائلة التقليدية من خلال طقوس العبور

براهم عصام[1]، زازوي موفق[2]

طالب دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تلمسان- أبي بكر بلقايد [1].

brahamissam@yahoo.fr

أستاذ، بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تلمسان- أبي بكر بلقايد [2].

zmoufek@yahoo.fr

تاريخ الإرسال:2019/01/01؛ تاريخ القبول:2019/01/25

Abstract: The transitory rituals of the Algerian traditional family reflect the vision of the social imagination of masculinity and femininity, and the pattern of the relationship between the world of men and the world of women. Where the passage rituals manifest the manifestations of discrimination between male and female since birth, as the male holder of the family name, and continue the rituals of passage through ritual circumcision in the confirmation of parental origin through the process of instilling the values of male identity. The boundaries of the relationship between men and women are defined by the marriage ritual as a stage of social and existential transit in the individual's situation. The ritual of death is the last episode of the rite of passage, and the rites of passage are used to observe these great transformations, to supervise them and to make them compatible with the group's beliefs, perceptions, and religious and social representations.

Keywords: rite of passage; Masculinity; Femininity; Traditional family; Social imagination.

الملخص:

تعكس طقوس العبور في العائلة التقليدية الجزائرية رؤية المخيال الاجتماعي للذكورة والأنوثة، ونمط العلاقة القائمة بين عالم الرجال وعالم النساء، إذ تتصل طقوس العبور بأهم التغيرات والتحولات التي تطرأ على الإنسان طوال دورة الحياة من الولادة والختان والزواج والموت. حيث تتجلى عبر طقوس العبور مظاهر التمييز بين الذكر والأنثى منذ لحظة تخلق الجنين إلى استقبال المولود، باعتبار أن الذكر في المخيال الاجتماعي حامل اسم العائلة، والعامل عل تمديديها من خلال الإنجاب، ولتستمر طقوس العبور عبر طقس الختان في تأكيد الأصل الأبوي من خلال عملية غرس قيم الهوية الذكورية والدمج في عالم الرجولة، ولترتسم حدود العلاقة بين الرجل والمرأة عبر طقوس الزواج بوصف الزواج مرحلة عبور اجتماعي ووجودي في وضعية الفرد، التي ستشهد تحولاً شاملاً على كل المستويات، وتشكل طقوس الموت الحلقة الأخيرة من حلقات طقوس العبور كأبرز التغيرات التي تلحق وضع الإنسان، وبذلك تعمل طقوس العبور على مراقبة هذه التحولات الكبرى، والإشراف عليها وجعلها منسجمة مع معتقدات الجماعة وتصوراتها وتمثلاتها الدينية والاجتماعية.

الكلمات المفتاحية: طقوس العبور; الذكورة; الأنوثة; العائلة التقليدية; المخيال الاجتماعي.

مقدمة:

تتصل طقوس العبور بأهم التغيرات البيولوجية والتحولات المكانية والزمانية والاجتماعية التي تطرأ على الإنسان طوال دورة الحياة، وبذلك تعمل طقوس العبور على مراقبة هذه التحولات الكبرى من الولادة والختان والزواج والموت، والإشراف عليها وجعلها منسجمة مع معتقدات الجماعة وتصوراتها وتمثلاتها الدينية والاجتماعية، وبذلك تعكس طقوس العبور في العائلة التقليدية الجزائرية، رؤية المخيال الاجتماعي للذكورة والأنوثة، كما تعكس طقوس العبور نمط العلاقة القائمة بين عالم الرجال وعالم النساء، من خلال مظاهر التمييز التي تتجلى في العديد من الممارسات التي يحظى بها الذكر ويتم بموجبها تفضيله على الأنثى في العديد من المناسبات العائلية.

هذه الممارسات الاجتماعية التي تتجسد من خلال طقوس العبور من الولادة إلى الموت، مثقلة بالتمثلات الثقافية والتصورات الرمزية التي تعكسها الثنائيات المتقابلة التي تطوق الذكورة والأنوثة وهو أمر يوحي بما ترسخ في المخيال الاجتماعي من تضاد بين الذكورة والأنوثة، بوصف الإيجابي هو دوما ذكوري، والسلبي هو دوما أنثوي. إذ يعتبر الذكر في المخيال الاجتماعي حامل اسم العائلة، والعامل على تمديديها من خلال الإنجاب. فإنجاب ذكر يعتبر نقطة الالتقاء التي تتحقق فيها مصالح الجميع في العائلة التقليدية، إذ أنها تحقق للمرأة الأمن النفسي ويجد فيها الرجال تجسيما لذهنيتهم الذكورية وتكريسا لامتدادهم المرغوب. كما يعتبر الختان طقس مرور أساسي يتم بفضله بناء الهوية الرجولية، والشروع في استيعاب النصوص الثقافية المرتبطة بالقيم الذكورية، وتأكيد الأصل الأبوي من خلال عملية غرس قيم الهوية الذكورية ومشاعرها والدمج في عالم الرجولة وحصول الولد على شيء من السلطة وبداية التفوق على كل نساء العائلة.

كما يعد الزواج من ابرز الأحداث التي كانت تعيشها العائلة بالمجتمع التقليدي، باعتباره مرحلة عبور اجتماعي ووجودي في وضعية الرجل والمرأة، وبوصف الزواج تدشينا لمرحلة جديدة في علاقة الرجل بالمرأة التي ستشهد تحولاً شاملاً على كل المستويات. إذ يعتبر الزواج، من أهم طقوس المرور بالنسبة للجنسين معا حيث ترتسم عبر طقوس الزواج حدود العلاقة بين الرجل والمرأة من جهة وبين الفرد والجماعة من جهة ثانية، فهو مناسبة تسمح لما هو ذكوري بالبروز، كما تشكل طقوس الموت الحلقة الأخيرة من حلقات طقوس العبور، إذ لا يتوقف التميز بين الجنسين بتوقف نبض الحياة بل يستمر رسم الحدود بين الجنسين حتى مع الموت. لتعكس طقوس العبور نمط العلاقة القائمة بين عالم الرجال وعالم النساء والتي يتم بموجبها الإعلاء من قيمة الذكر والحط من شأن الأنثى.

نسعى من خلال هذا المقال للإجابة على مجموعة أسئلة: ما هي أهم طقوس العبور في العائلة التقليدية الجزائرية؟ وكيف تتمظهر العلاقة ذكورة/ أنوثة من خلال طقوس العبور؟ وما الآليات التي تحكمت في إنتاج هذه العلاقة؟. نهدف من خلال الإجابة عن هذه الأسئلة إلى استنطاق أهم الدلالات الثقافية والاجتماعية لطقوس العبور، وإبراز تجليات العلاقة بين الذكورة والأنوثة، كما نسعى إلى الكشف عن المنطق الضمني للتفكير الثقافي الذي أنبنت عليه العلاقة بين الجنسين في العائلة التقليدية. استعنا للإجابة عن هذه الأسئلة بالمنهج الاثنوغرافي ومحاولة الوصف المكثف لممارسات وطقوس العبور داخل العائلة التقليدية الجزائرية، كما استعنا بتقنية المقابلة لجمع المادة الاثنوغرافية وكان اختيارنا للعائلة المحلية بمنطقة تبسة كميدان للدراسة.

طقوس الولادة:

تعتبر الولادة حدث رمزي بالغ الأهمية في العائلة التقليدية، باعتبار الأطفال رهان لوجود العائلة ودعامة لامتدادها، خصوصا إذا ما كان المولود ذكرا، حيث تتجلى مظاهر التمييز بين الذكر

والأنثى منذ لحظة تخلق الجنين إلى استقبال المولود، والعديد من الممارسات التي يحظى بها الولد ويتم بموجبها تفضيله على الفتاة.

مع بداية الوحم تبدأ الجدة والعجائز المقربات عملية التكهن بجنس المولود، حيث يعتقد أن الوحم يختلف باختلاف الجنين، فإذا كان الجنين ذكرا، فإن المرأة تتوحم على الحمضيات والحار من الطعام، أما إذا كانت أنثى فإنها تتوحم على الحلويات والفواكه. كما يمكن التكهن بجنس الجنين منذ الوقت الذي تشعر فيه المرأة الحامل بالحركة، إذ يعتقد أن الجنين الذكر أحكم وأقوى من الجنين الأنثى، ولذا فان حركته تسبق حركتها، فهو يتحرك في نهاية الشهر الرابع بينما تتأخر حركة الأنثى حتى منتصف الشهر الخامس أو نهايته، كما أن الجنين الذكر يكون موضعه في جهة اليمين، أما الأنثى فتكون في جهة اليسار، بين الضلوع مما يجعل بطن المرأة اقل علوا من البطن التي يتوقع منها الولد، الذي يكون حمله خفيفا، على عكس الأنثى الذي يأتي حملها ثقيلا. ويعتقد في المخيال الاجتماعي أن الجنين يحدث أمه إذا كان ذكرا قائلا: «أزياني ياما أزياني وكي تحطيني أشياني»، أي أن حمل الولد يجعل وجه أمه جميلا، أما الأنثى فتقول لأمها: «أشياني ياما أشياني وكي تحطيني أزياني» أي أن حمل الفتاة يغير من وجه الأم بل انه يجعله قبيحا.

تدل هذه المعتقدات على أن تحقق الحبل ليس فعلا بيولوجيا بقدر ما هو ممارسة اجتماعية مثقلة بالتمثلات الثقافية والتصورات الرمزية التي تعكسها الثنائيات المتقابلة التي تطوق الذكورة والأنوثة نحو الحار/البارد، القوي/الضعيف، اليمين/اليسار، المرتفع/المنخفض، الخفيف/الثقيل، الجميل/القبيح. فكل الصفات الايجابية هي من نصيب الذكر وما عاداها يليق بالإناث، وهو أمر يوحي بما ترسخ في المخيال الاجتماعي من تضاد بين الذكورة والأنوثة، فالإيجابي هو دوما ذكوري، والسلبي هو دوما أنثوي.

بعد الولادة تقوم القابلة بقطع الحبل السري الذي يرتبط بالعديد من الممارسات، فغالبا ما تقوم إحدى القريبات العمة أو الخالة بدفن

المشيمة في الأرض، وفي مكان يتكتم عنه، وذلك تجنبا لكل ما كانت له علاقة بدم الولادة وبالنجاسة، خشية استعمالها في السحر، فكل جزء ينفصل عن البدن يبقى محتفظا بقوة حيوية ويمكن له أن يؤثر في حياة الإنسان. بالإضافة إلى ذلك تربط سُرة المولود في عنق ناقة أو كبش أو في نخلة حيث يسود الاعتقاد أن هذا الجزء الجزء الحي من جسم الإنسان والمرتبط بالخصوبة كفيل بزيادة القطيع أو إخصاب الأرض كنوع من البركة. كما تدفن سرة المولود أمام المسجد تيمنا وأملا في أن يكبر الطفل ويكون من أهل المساجد وحفظة القرآن.

كما يحرص الأهل في اليوم الأول من الولادة على إسماع الأذان في الأذن اليمنى والتكبير في الأذن اليسرى للمولود، وتكمن قيمة هذا الطقس القولي (الأذان) في حماية المولود من الأذى وإبعاد الأرواح الشريرة عن الطفل وهو أمر يوضح مدى إيمان المجتمع بالقوة السحرية التي يحتويها الأذان وبسلطة الكلمة وتأثيرها في نفس السامع (أمال قرامي، 2007: 72)، وعادة ما يستدعى الأهل شخص اسمه "محمد" لإسماع الأذان للمولود فتكون الدعوة إلى التوحيد أول ما يسمعه الوليد فيحرك وجدانه، رغبة في احتواءه وضمه إلى مجموعة انتماء.

بعد مرور أسبوع من الولادة، يمنح المولود في هذا اليوم "السبوع" اسما دالا على خروجه من صيغة المجهول إلى صيغة المعلوم والتعيين، وعلامة على اعتراف الجماعة به كائنا موجودا بينها، وتعد التسمية وسيلة من وسائل الدمج الاجتماعي للوليد، وشاهدا على انتمائه للدين، وعاملا من عوامل تجذيره في ثقافة لها مميزاتها الخاصة، وبذلك يكتسب هوية اجتماعية ودينية وتنطلق حياته الفعلية.

تقيم العائلة يوم "السبوع" احتفاليّة على شرف المولود شكرا لله واستبشارا بقدومه، يدعى إليها الأهل والأقارب، وتعد الولائم وتقدم للعائلة الهدايا والتهانيّ، خاصة إذا كان المولود ذكر، أين تُذبح فيه العقيقة، وهي طقس ذكوري بما أن العق لغويا هو الشق والقطع،

ومعنى ذلك أنها إعلان عن مفارقة المولود للرحم الكنان (أمال قرامي، 2007: 76)، حيث يسود الاعتقاد في المخيال الجمعي أن لدم العقيقة الطاهر والمقدس قوة سحرية قادرة على حماية المولود وإبعاده عن عالم الجن وتطهيره من نجاسة دم النفاس النجس والخطير والذي يعد مصدر الأمراض والشر، فدم النفاس في تراث شعوب كثيرة دم سلبي يحدث النجاسة وتثير رؤيته الرعب في النفوس لأنه دم مهدد بالموت. أما الدم الذي يراق من الأضحية، فانه دم ايجابي يرمز إلى القوة والحياة والبركة والنماء باعتبار أن الإنسان اسأله باختياره لتطهير المولود ومنحه القوة المنشودة ودمجه في الجماعة .

يعتبر اليوم الأربعون أخر يوم تغلق فيه طقوس الولادة واحتفاليتها، حيث تنهي الأم "النفساء" ارتباطها بالعالم السماوي حسب ما يعتقده المخيال الاجتماعي حول النفساء، فهي في هذه المرحلة تقف على عتبة المقدس وتكون منتمية إلى عالمين (خولة الفرشيشي،146:2017)، عالم علوي ملائكي، فأبواب الجنة مفتوحة أمام دعواتها طيلة الأربعين يوما مدة النفاس، وتعلن طقوس الاستحمام عودتها إلى العالم الدنيوي، إلى حالة الأنوثة والخصوبة والى الحياة العملية. كما أن بعد الأربعين يوما يكون المولود قد فتح عيناه على الدنيا وبدأ يتخطى مرحلة الخطر، وبذلك تكون الحلاقة في هذا اليوم طقس عبور للمولود من عالم إلى عالم آخر، ونقله من طور الطبيعة إلى طور الثقافة، وهي محاولة لإخراج المولود من حالة الضعف والوهن التي ولد عليها ليكسبه الحلق بعض الخصائص التي تساعده على اقتحام الحياة.

وبذلك ارتبط طقس الحلاقة في اللاوعي الجمعي الذكوري باعتباره فعل تطهيري ينطوي على جزء خارجي "جسدي" وجزء داخلي "روحي"، كحماية من الخطر الذي يرمز إليه الشعر حين يحلق، وعن الرغبة في انتزاع الطفل من العالم الأنثوي بأسرع وقت ممكن لتطعيمه بالقيم الذكورية. كما أن حلق الشعر علامة على الرغبة في تحديد هوية المولود ودمجه في عالم الرجولة، وهي بداية

خطوات يقطعها الرجل في سبيل فصل الصبي عن الأم وتخليصه من عالم الأنوثة، كأداة للتعبير عن استحواذ المجتمع الذكوري على أطفاله وسعيه إلى تثبيت الفحولة.

طقوس الختان:

يعتبر الختان طقس مرور أساسي يتم بفضله بناء الهوية الرجولية، ولذلك لابد من تنشئة اجتماعية تمر عبر هذا الطقس للتمييز بين الرجل واللارجل، أو بين الذكورة والرجولة.

تبدأ العائلة التحضيرات لختان الولد قبل أيام من موعد الاحتفال الذي غالبا ما يدوم يومين. في صباح اليوم الأول يمر الطفل بطقس الحمام وهي العلامة الفارقة لالتحاقه بعالم الذكور واستعداده لمغادرة العالم الأنثوي، حيث تحتفي به أمه أمام النساء لأنه سيغدو رجلا ويفارق عهد الطفولة والدخول إلى عالم المسؤولية، تعيش العائلة عشية الختان يوما خاصا للاحتفاء بالولد، ووسط أجواء من الفرح، يجلس الولد وقد زيّن بأحسن اللباس. وبخلاف الفرحة التي تعم البيت في اليوم الأول من الختان، تعيش العائلة ارتباكا حقيقيا في اليوم التالي، التي تبدأ بقدوم الحلاق أو "الطهار" إلى بيت العائلة، ما يعني انطلاق العد العكسي لبدء معاناة الأم، بينما يتم إعداد الطفل لعملية الختان بإشراف الأب، حيث يكسى الطفل بلباس ابيض مطرز بالفتلة الذهبية، وعندما تزف الساعة يأخذ الجد أو العم أو الأب الطفل في حضنه الذي لا يجد حيلة له سوى الصراخ والبكاء ألما، يقوم الحلاق (الطهار) بالعملية التي لا تستغرق إلا ثواني، بموس أو مقص حاد، ثم يغلق الجرح بقليل من رماد الخشب أو غيره من المواد التي توقف النزيف.

في لحظة إجراء العملية وإحداث الجرح تضع الأم رجلها في الماء البارد وتعض قطعا من الفضة، اعتقادا أن ذلك يجعل من آلات الطهار بردا وسلاما على طفلها، وتقوم القريبات من النسوة بوضع الفضة في قصعة وتحريكها، فالشيء المهم في هذه اللحظة هو إحداث ضوضاء، كثير من الضوضاء، ضرب الرجال للبارود وزغردة النسوة، حتى لا تسمع الأم صراخ ابنها. وطوال عملية الختان، تتمايل

الأم وتردد ألحاناً خاصة بالمناسبة، تدعو فيها الله أن يحفظ ابنها ويحميه، وتطلب من الطهار أن يكون حنوناً على طفلها الصغير وان يرفق به، وتناشد الله بإيماءاتها أن يدخل طفلها عالم الرجال من دون آلام.

يطلق الرجال البارود إعلانا عن انتهاء عملية الختان، ثم يتقدم الجميع لتهنئة الطفل المختن وإعطائه حلوى أو لعب أو قطعا من النقود. ثم تقام الولائم والاحتفالات، التي تحولها بعض العائلات إلى استعراض يمدها إلى أسبوع أو أكثر، ويعاد الطفل بعد الختان إلى أمه لتعيش العائلة جوا روحانيا، تغمره الفرحة والسعادة، خاصة بالنسبة للأطفال الذين عادة ما يجلسون أمام الطفل المختون وهم يتأملون هذه الطقوس.

يكشف طقس الختان، كحدث عائلي بالغ الأهمية، عن مجموعة من الدلالات الاجتماعية والتصورات الرمزية التي ترتبط بالنظام الثقافي الذي يتأسس عليه المجتمع. انطلاقا من الاسم الشائع للختان في الثقافة الشعبية الشفوية الطهارة، يمكن إقامة علاقة بين مفهومي الختان والطهارة على أساس ثنائية الطهارة/النجاسة، باعتبار أن مفهوم الطهارة يحمل معنى تخليص الفرد من الدنس والنجاسة، إن الاعتقاد بعدم طهارة المرأة عند المخاض يلوث وينجس الرضيع وبفضل الرابطة مع الأمهات يعتبر صغار الذكور نجسين وغير ناضجين (سهام بن عبد السلام،37:2006). وبذلك يرسخ مفهوم الطهارة للدلالة على الختان في المخيال الاجتماعي طبيعة المرأة بوصفها كائنا نجس لا تتمتع بالفضيلة بفطرته ولا بالنظافة بحكم تكوينه، وبخلاف دم المرأة الذي يرتبط بالخطيئة والموت، فان دم عملية الختان يشير إلى الفضيلة والكمال والبركة.

يمكن إعتبار الختان، ممارسة اجتماعية أكثر منها ممارسة دينية، باعتبار أن الختان عبور إلى عالم البالغين، تجرى عمليته بالدم والألم في سن متأخرة بحيث يستطيع الصبي أن يتذكرها في المستقبل، ومن الملاحظ أن كلمتي "ذكر" و"ذاكرة" في اللغة العربية مشتقان من جذر واحد. كما يشكل طقس الختان واحتفاليته أداة وألية لاستمرار المجتمع

الذكوري، الذي يتحكم في أفراده بإكسابهم الإحساس بالضعف حيث يؤسس الختان قاعدة أن تحكم القوي في الضعيف شيء طبيعي وجزء لا يتجزأ من تركيبة الواقع الاجتماعي، وبذلك يكون تحكم الرجل في المرأة الذي لا يتم دون تحكم الرجل في الولد، فبالختان يتم توجيه خطاب للام فحواه "أن سلطتك على الذكور محدودة وهذا الطفل ينتمي إلى الرجال". ليبطل الختان سلطة الأم بفصل الطفل عنها وإيذائه دون تمكنها من الدفاع عنه، ويؤدي تعرض الطفل في باكورة حياته للألم الشديد دون تمكنه من التحكم والمقاومة إلى أن يتعلم أن العنف الغاشم ضد الضعفاء احد سنن الحياة التي لا مفر منها (سهام بن عبد السلام،70:2006). عبرت أمهات الأطفال عن أن يوم ختان الابن كان أسوأ أيام حياتهن، كما عبر الآباء أن الألم يصنع الرجولة وهو الذي يميز الرجل من اللارجل، وهو ما يفسر بالاعتقاد القديم أن الألم خير وضروري ومقدس، بل انه من علامات الحياة. وهو ما يؤكد أن الرجولة بناء يستدعي بذلا للجهد والألم.

يرى (جيمس ديميو. James DeMeo)، أن الإخلال بعلاقة الحماية والرعاية التي تربط بين الأم وطفلها وإيذاء الأطفال عوامل مهمة لاستمرار المجتمع الذكوري، كما يعتبر (فيكتور تيرنر. Victor Turner) أن الهدف من الختان هو تعديل علاقة الطفل الذكر بأمه وأبيه، بحيث يعاد تنظيم العلاقات بينهم لتأخذ اتجاهات مغايرة لما كانت عليه قبل الختان (سهام بن عبد السلام،37:2006)، وهكذا يتم تشويش العلاقة بين الرجل والمرأة وبين الطفل وأمه، حتى لا تتوثق علاقة الأولاد بأمهاتهم ويزيد ولائهم لهن بتأثير مرور الزمن إلى حد يصعب بعده فصلهم عنهن وتحويل ولاءهم إلى إبائهم، مما يثبت أن الختان قطع للطفل من عالم النساء.

وبذلك يعد الختان آلية تصحيحية، الهدف منه إعادة بناء الهوية الذكورية حيث يكون الأطفال ناضجين بما فيه الكفاية للانفصال عن أماتهم والشروع في استيعاب النصوص الثقافية المرتبطة بالقيم الذكورية، وتأكيد الأصل الأبوي من خلال عملية غرس قيم الهوية

الذكورية ومشاعرها والدمج في عالم الرجولة، وحصول الولد على شيء من السلطة وبداية التفوق على كل نساء العائلة.

طقوس الزواج:

يعتبر الزواج ابرز الأحداث التي كانت تعيشها العائلة بالمجتمع التقليدي، باعتباره مرحلة عبور اجتماعي ووجودي في وضعية الفرد، وبوصف الزواج المرحلة الثانية من مراحل دورة الحياة، التي ستشهد تحولاً شاملاً على كل المستويات.

قبل الشروع في ترتيبات العرس في العائلة التقليدية، تختفي البنت والولد على نظر والديهما وتنزوي البنت/العروس في ركن من الخيمة أو الغرفة، وينسحب الولد/العريس للاختفاء عن أنظار كبار القبيلة والمسنين من الأقارب، إظهارا للحياء. يتعلق هذا الاختفاء للعريسين بطقس الحجبة باعتبارهما المعنيين مباشرة بالزواج. ويبدو أن ما كان يدعو للحياء فعلا هو الجانب الجنسي الذي سيميز حياتهما الجديدة (فاطمة جراد، 245:2015). وهو جانب دقيق ومخجل في المجتمع التقليدي.

تنطلق فترة "الحجبة" الفعلية لعريس والعروس بأسبوع تقريبا قبل العرس، وينتظم طقس الحجبة وفق نظام يشبه الأنظمة السياسية يقوده العريس الذي يسمى السلطان، ويسمى أصدقائه وأقرانه بـ"العراسة" أو "الحجابة"، وعلى غرار العريس تسمى العروس "سلطانة" ويطلق على صديقاتها أيضا "الحجابة"، وهم أبناء أعمام وأقارب الزوجين الذين يصاحبونهم طيلة أيام العرس فيؤانسونهم ويشرفون على شؤونهم، وما على "السلطان" و"السلطانة" إلا الأمر والنهي. ويساعد "السلطان" احد أصدقائه المقربين الذي يسمى "الوزير" لتنفيذ أوامره، أما العروس فتكون بدورها مرفوقة بـ"الوزيرة" ومن المستحسن أن يكون الوزير والوزيرة من أولاد العم وقريبا في السن، كما يشترط فيهما أن يكونا متزوجين منذ عام على الأقل أي "دار عليهم الحول".

يرتبط طقس الحجبة كممارسة بالتصور الجماعي للزواج باعتباره تدشينا لمرحلة جديدة في علاقة الرجل بالمرأة يحضر فيها الجانب الجنسي الذي يعتبر شرعا وعرفا محرما خارج مؤسسة

الزواج. وبذلك يعتبر طقس الاختفاء والحجبة مرحلتين أساسيتين ينخرط فيهما الفرد ضمن سيرورة مروره من وضعية إلى وضعية أخرى. وهو ما حدده (فان جنب. Van Gennep) في مؤلفه "طقوس العبور" حيث تتم عملية العبور ضمن ثلاث مراحل وهي مرحلة الانعزال عن المجموعة ومرحلة الإقصاء ثم مرحلة إعادة الاندماج داخل المجموعة (Van Gennep،1909:165)، وبذلك يتم في مرحلة الانعزال أو الاحتجاب إيقاف علاقة الفرد مؤقتا بمحيطه ثم إعادة إدماجه أخيراً في نسق الحياة اليومية في وضعية اجتماعية جديدة وهي وضعية المتزوج (فاطمة جراد، 132:2015). كانت ممارسة طقس الحجبة في العائلة التقليدية تمتد قبل العرس وبعده إلى إتمام اليوم السابع .

من جهة أخرى تشكل ليلة الدخول عصب حفل الزفاف وعماده الرمزي، إذ يعتبر طقس فض البكارة، من أهم طقوس المرور بالنسبة للجنسين معا، فهذا الطقس دليل على عذرية العروس وعلى فحولة العريس في معظم المجتمعات العربية (عبد الصمد الديالمي،19:2009). حيث يربط هذا الطقس بطريقة شبه قدرية بين مكانة الرجل والسلوك الجنسي للنساء الخاضعات له باعتبار أن شرف العائلة علامة تحملها المرأة بين فخذيها، في فرجها، ودم الاقتراع بالنسبة إلى البنت ليلة الزفاف يشكّل - بالمقابل- ضمانة لأخلاقيتها (الطوالبي نور الدين،49:1989).

كانت عملية الدخول تقع وفق طقوس خاصة، يدخل العريس في جو من الخشوع والقداسة، ليختلي بعروسه في غرفة تكون مخصصة لهذا الطقس لفض بكارتها. لتشهد عملية "الدخلة" جملة من الطقوس، حيث يتعين على العريس أن يلج الغرفة برجله اليمنى ويغلق الباب بقدمه اليسرى، وان يتأكد من أن الغرفة خاليا من أي فجوات، ومن أن الزوجة لا تحمل معها أي طلسم أو تميمة، إلى غيرها من التحويطات الطقوسية الهادفة إلى تأكد الزوج الجديد بأنه بمأمن من أي أفعال سحرية، وانه بالمرصاد لكل محاولة من حساده الذين يتربصون به الدوائر (مالك شبل، 87:2010).

تعتبر السرعة في فك البكارة مقياس للرجولة وفحولة العريس التي تقاس بالمدة الزمنية التي قضاها مع العروس حتى إفتض بكارتها، لتتمظهر عبر طقس فض البكارة ثنائية الفاعل والمفعول به، كثنائية مركزية في التنظيم التقليدي للجنسانية، وهي ثنائية تجعل من الرجولة فحولة بالأساس. إن الرجولة قدرة على الفعل، والقدرة على الفعل هي القدرة على الوطء كفعل رجولي بامتياز، أي كفعل جنساني ويشكل الإخفاق إخفاقاً جنسانياً ينال من رجولة الرجل (عبد الصمد الديالمي،20:2009). أما الأنثى فهي مجرد كائن منفعل، ليس له أن يعبر حتى عن الألم الذي يستشعره بسبب الإيلاج، تحقيقا لمبدأ رفعة الرغبة الذكورية على الرغبة الأنثوية (مالك شبل، 100:2010)، إن الألم الأنثوي الذي قد تستشعره الأنثى في ليلة الدخول، هو بنظر العقلية الجنسية السائدة، مجرد انفعال بسيط يعبر، عن حشمة بالغة ولطف متكلف مرغوب، كتعبير عن "مكر نسوي" مختال ليس إلا.

إذا تم كل شيء وفق ما كان منتظرا، وتأكدت قدرة العريس على المباشرة، وتوفر العروس على عذرية، يسارع الزوج بإعلانها إلى وزيره مدليا بدليله في ذلك، فيقوم هذا الأخير بإطلاق البارود وتتعالى زغاريد النسوة وفي مقدمتهم أم العروس ورؤسوهن متجهة نحو السماء بغية إخبار الحضور، بابنتهم التي رفعت رأس أبيها وعشيرتها. وبعد أن تعم الفرحة والسرور بنجاح هذا الزواج، يخيم السكون وتنتهي الاحتفالات، ويعود العريس الزوج الجديد إلى عروسته ليمضيا معا ما تبقى من الليلة ويغادر باكرا المحل خلسة مصحوبا بوزيره مخافة أن يراه والده (فاطمة جراد، 145:2015).

من جهة أخرى يعتبر فقدان البكارة قبل الزواج أمر ووضع غير مقبول، بل انه شذوذ وضرب في الصميم لشرف العائلة، ويشكل المس بشرف العائلة مس بشرف كل الرجال والعرش، والقبيلة، الذين عجزوا عن الحفاظ عليها. إن وطء فتاة قبل الزواج يعني أبويا وطء كل ذكور الموطوءة من طرف الواطىء بتعبير أخر، يعني هدا الوطء تحويلا رمزيا لكل رجال الموطوءة إلى نساء، أي تحويل أبيها وأعمامها وإخوانها إلى ذكور بلا فحولة، آلة مفعول بهم، يفسر ذلك

عدم حضور جميع أفراد عائلة العروس إلى حفل الزفاف، تجنبا لإمكانية وقوع حوادث مؤسفة عقب مثل هذا المشهد التي قد يستثير حميتهم وعصبيتهم إثر محاولة الدفاع عن بنتهم، ويقتصر الحضور إلى بيت الزوج على مجموعة صغيرة من النساء، وأخوها وبعض أقاربها، أما أب العروس فإن الأعراف السائدة تمنع عليه مرافقتها.

هكذا ترتسم عبر طقس الافتضاض حدود العلاقة بين الرجل والمرأة من جهة وبين الفرد والجماعة من جهة ثانية، فهو مناسبة تسمح لما هو ذكوري بالبروز باعتبارها امتيازا ونبلا يخولان للرجل إظهار قوته وسلطته، ويراهن من خلالها الرجل على إثبات صلاحيته الاجتماعية وفي الوقت نفسه قدرته الذاتية على الانجاز (مالك شبل، 88:2010). أي اختبار فحولته وعرضها أمام المرأة وأمام الآخرين، كما انه قانون الدم الذي تتحقق به ومن خلاله هوية الزوجة، باعتباره دليلا ماديا على جودة أنوثتها، والخاصية المميزة لشخصية الزوجة الكاملة الأوصاف، ودم الاقتراع علامة وضمانة لأخلاقيتها، كالعفة والوفاء والتحفظ والحياء ورمز لشرف عائلتها.

تقتضي التقاليد أن يزور أهل العروس ابنتهم في صباح اليوم الموالي- عادة ما يكون الجمعة- ويسمى هذا التقليد بـ"الصباحة"، وتجلس العروس مرتدية أزهى ملابسها، محاطة بـ"وزيرتها" وقريباتها، مبتسمة ومحدقة في النساء المحيطات بها، في جو من الفرح والمرح، لتعيش العروس، وكل قريباتها القادمات معها، لحظات كلها فخر واعتزاز، ويحظين بالتقدير اللازم لهن من طرف قريبات العريس الزوج. وتتواصل المظاهر الاحتفالية انطلاقا من يوم الصباح سبعة أيام تستمر خلالها العروس في حجبتها، ويتم إعفائها من كثير من الواجبات وتعيش سلطانة لا تعمل أي شيء بل الكل يخدمها، ويتابع العريس مصاحبة عراسته طيلة النهار ولا يلتحق بزوجته إلا ليلا.

تنتهي هذه الاحتفالية بانقضاء سبعة أيام عندما تتمنطق العروس، أي تضع "الحزام" في يوم "السابع"، وتختلف طقوس وعادات لبس الحزام من عائلة إلى أخرى إلا أنها تحمل نفس الدلالات، يُلبس والد

العروس أو عمه أو جده الحزام للعروس، كما يمكن أن يكون الأخ الأصغر للزوج هو من يقوم بهذا الطقس كفأل خير وترميز لإنجاب الذكور، كما أن هذا الطقس علامة على ربط العروس بعائلتها الجديدة، كما يرمز "الحزام" إلى الحزم والعزم بمعنى أن المرأة أصبحت مستعدة للقيام بالمهام العائلية والامتثال والانضباط وتنفيذ الأوامر. وبذلك يشكل طقس الحزام خاتمة لفترة راحة العروس، والانخراط في وتيرة الحياة اليومية العادية، واستعدادها لمواجهة المسؤولية الملقاة على عاتقها وبداية اختبارها من طرف "كنتها" في كيفية إشرافها وإتقانها للأعمال المنزلية، وهو ما عبر عنه المثل الشعبي:"المرا لي ما تغربلش دقيقها، غير ترجع على طريقها". فالمهارة وحسن التدبير شرطان ضروريان لاستمرار الحياة الزوجية ونجاحها.

إضافة إلى طقس الحزام تطلب الجدة من العروس أن تدق وتدا أو مسمارا في الأرض، وهي ترددد: "دقاقة الأوتاد جيابة الأولاد" وهو من طقوس الاندماج والإخصاب باعتبار أن إنجاب الذكور هو الكفيل بتثبيت المرأة في بيت زوجها وانتقال الكنة إلى جدة. ثم تختم العروس أيام حجبتها بزيارة أهلها، وتلتقي خلال هذه الزيارة بوالدها بعد فترة طويلة من الاحتجاب عنه، أما العريس فلم تكن له الجرأة الكافية لمواجهة أبيه بعد العرس، فانه كان يقابل والده مباشرة بعد أن تمحى حنة العرس من يده.

طقوس الموت

تشكل طقوس الموت الحلقة الأخيرة من حلقات طقوس العبور، إذ أن الموت من وجهة نظر (فان جنب. Van Gennep) من ابرز التغيرات التي تلحق وضع الإنسان، وممثل أنموذجي لمفهوم العبور، فثمة انتقال من عالم الأحياء إلى عالم الأموات (VanGennep,1909:209) وبذلك مرور من الفضاء الأهل بالناس إلى فضاء المقابر الموحشة وتحول من وتيرة الحياة الرتيبة إلى زمن الأزمة وحلول الفوضى.

تظهر أهمية الموت كحدث اجتماعي عائلي من خلال الإحاطة بالميت منذ بداية مرض الموت إلى لحظة الاحتضار، وتعتبر المرأة هي أقرب شخص قادر على العناية بالمريض مرض الموت، سواء كانت أما أو زوجة أو أخت، ويعود ذلك إلى أن ملازمة المرأة للمحتضر هي من الأفعال الرمزية المعبرة عن توق المرء إلى أن يحظى بميتة متميزة يتم فيها احتضانه بحنان والعودة به إلى الرحم الأمومي، باعتبار أن مسار الحياة ينطلق من المرأة فهي التي ترعى المولود وتحتضنه وتشفق عليه وتظل ساهرة على راحته حتى يعود إليها في نهاية المطاف فتفتح له ذراعيها ليستمد منها العون، وهو في أحلك لحظات حياته يكابد الآلام والضعف والخوف فتشمله بعطفها ثم تسلمه برفق إلى أم ثانية والى الرحم الأصلي الأرض (أمال قرامي،2007: 545).

من بين الطقوس التي ينشغل بها الأهل في لحظات الموت الإحاطة بالمحتضر وترطيب شفتيه بالماء أو التنقيط داخل فمه لمرات عدة، وتقرا عد رأسه بعض السور والأدعية والأذكار الخاصة بالميت، اعتقادا أنها تخفف من سكرات الموت وتسهيل عملية خروج الروح من الجسد أثناء منازعته الموت، وتلقين المحتضر الشهادة وتوجيهه إلى القبلة وفتح الأبواب استعدادا لدخول الملائكة، اعتقادا أن الملائكة تحضر موقف الاحتضار وتشارك الناس دعائهم، يحضر في هذه الأثناء جميع الأهل والأقرباء والجيران من اجل توديع المحتضر وطلب السماح وبراءة الذمة منه، ويلف المكان حينها الحزن واللوعة والبكاء.

عندما يتأكد من الموت البيولوجي، يتكفل احد الرجال عادة بإقفال عيني الميت وفمه وتوجيهه إلى القبلة، وغالبا ما تستثنى النساء من هذا الطقس، حيث كره أن تتولى المرأة وخصوصا الحائض تغميض عيني الميت وتوجيهه للقبلة والدعاء له، ويرجع سبب الإقصاء إلى خصوصية المرأة المرتبطة بطبيعة تكوينها العاطفي من رقة وعدم صبر، وبذلك الخشية من اندفاعها في العويل والنحيب. وفي مقابل ذلك كان الرجل مؤهلا، للقيام بهذا الطقس نظرا إلى تميزه برجاحة العقل

وشدة الجلد، وقوة الطباع وامتثاله للإرادة الإلهية، وهو أمر وموقف ليس حكرا على الإسلام بل نجده في الديانات السماوية الأخرى التي حالت دون قيام المرأة بأصناف من الطقوس الدينية. ويرجع سبب ذلك، تصور مفاده أن المرأة كائن دنيوي يجب إلا يكون على صلة متينة بالمقدس على عكس الرجل الذي هو حامل للمقدس (رحال بوبريك،20:2010)، بل الأكثر من ذلك هو المحتكر للكلام المقدس.

يتم الشروع في تغسيل الميت وفق القواعد الإسلامية المضبوطة، فالجنس يغسل نفس الجنس، فالرجال يغسلون الرجال والنساء يغسلن النساء، وبالنسبة للمرأة التي تطوع لقيام بهذه الهمة فإنها غالبا ما تكون قابلة يشهد لها بالخبرة والمعرفة وتحظى بالثقة. يغسل جسد الميت بالماء الساخن والصابون وتدلك كافة أعضاء الجثة الهامدة بواسطة قطعة من القماش المخيط "خرقة". وبعد الفراغ من تغسيله يتم إقفال أذنيه بقطع من الصوف، اعتقادا أن ذلك يجعله يتحمل مشاق القبر. ويتم تكفين الميت في ثوب ابيض يقسم إلى ثلاث قطع سروال وصدرية مخاطان بشكل سريع وقطعة ثالثة غير مخيطة تلف فيها الجثة بكاملها، يوضع داخل الكفن مجموعة من المعطرات تسمى محليا بـ"الحنوط" وتتألف من وريقات الورد والريحان وحبات الحرمل وقنينة ماء زهر.

يوضع الميت على جانبه الأيمن صوب القبلة، حتى تحين تلك اللحظة الرهيبة التي تتعالى فيها أصوات النساء من بكاء ونحيب وعويل ولولة، مودعة جسد الميت الذي يغادر منزله ممدا على نعش محمول فوق أكتاف الرجال، ليتوجه الموكب الجنائزي بخطى بطيئة صوب المقبرة، في هدوء وصمت وفق نظام ثابت. وتترك فوضى النساء في البيت حيث يسود الاضطراب والصخب والندب من إسالة دم من الوجه وضرب الأيدي على الفخذ والصدر وشق الجيب، هذه الممارسات التي ينظر إليها في المتخيل الإسلامي على أنها علامات للتمرد على الإرادة الإلهية، خصوصا وأنها أفعال تذكر بعصيان إبليس أوامر الخالق، خاصة وان النياحة توصف بأنها نعيق الشيطان، ذلك أن إبليس هو أول من ناح فتأثرت به المرأة (أمال

قرامي،570:2007)، ولا غرابة أن يتم الربط بين المرأة والشيطان في المخيال الاجتماعي. من جهة ثانية أعتبر ظهور النساء في الجنازة خرقا للعرف وسببا للفتنة والاختلاط ذلك أن مكان النساء الطبيعي هو الفضاء الداخلي فضاء الرحم والحمل والولادة، أي الحياة، وللرجال حق الحضور في الفضاء الخارجي حيث الحرب والقتل والدفن (أمال قرامي،571:2007).

عندما يصل الموكب إلى المقبرة يصلى على النعش صلاة الجنازة، ثم يوضع بعدها الميت على جانبه الأيمن داخل القبر، ويوارى بالثرى بعد أن يغطى بمجموعة من الأحجار المسطحة، توضع حجرة عند رأس الميت تسمى "الشاهدة" إذا كان رجلا، وتضاف حجرة ثانية عند أرجل الميت وتصبح "شاهدتان" إذا كانت امرأة، وتعتبر "الشاهدة"رسم لحدود القبر والتمييز بين قبور الرجال والنساء، كما أن الشاهدة على رأس الميت الذكر واختفائها عند قدميه تعبر عن الفضاء المفتوح أمام الرجل وحضورها عند رجل المرأة تعبر عن انغلاق الفضاء أمام المرأة حتى في القبر.

بعد الدفن تسود أجواء الحزن داخل العائلة وتبدأ مرحلة الحداد، حيث يقلع كافة الأهل عن جل مظاهر الفرح وتتوقف كل معالم الزينة عند النساء كما عند الرجال، احتراما لروح الفقيد "رجل أو امرأة"، ويعتبر الحداد إدماجا للميت داخل عالمه الجديد، فلكي يتم قبول الميت داخل عالم الموتى وحصوله على الاعتراف من قبلهم كما يقول (مارسيا الياد. Mircea Eliade) ، ينبغي على ذويه الأحياء القيام بعدد من الإجراءات والقواعد لضبط السير الجيد للحداد، وتيسير مرور الميت إلى العالم الآخر(عبد الغني منديب، 2006: 160). يوضع في مكان نعش الميت شمعتان وكاس من الماء اعتقادا بعودة روح ذلك المتوفى إلى البيت لزيارة أهله، وبذلك تسيطر على الأفراد فكرة عودة الميت وانتقامه من الأحياء عندما يتفطن إلى أن موته لم يؤثر في أهله وذويه، كما أن الحداد لا يُعدُ فقط الموتى للمرور إلى العالم الآخر، وإنما الأحياء أيضا، إذ يشكل الأحياء والأموات مجتمعاً خاصاً كما يرى (فان جيب.Van Gennep) يتأرجح بين عالم الأحياء وعالم

الأموات، (Van Gennep,1909:209)، هذا المجتمع الذي يغادره الأحياء بعد انقضاء فترة الحداد، التي تطول وتقصر حسب درجة قرابتهم بالميت.

الخاتمة:

تكشف طقوس العبور في العائلة التقليدية الجزائرية، عن تمظهرات العلاقة بين الذكورة والأنوثة، من خلال دورة الحياة من الولادة والختان والزواج إلى الموت، إذ تجسد طقوس العبور في العائلة التقليدية مظاهر التمييز بين الذكر والأنثى، عبر العديد من الممارسات المثقلة بالتمثلات الثقافية والتي يتم بموجبها تفضيل الولد على الفتاة في العديد من المناسبات إذ يستمر التمييز بين الذكورة والأنوثة، منذ تخلق الجنين في بطن أمه ويتواصل في كل مراحل الحياة ولا يتوقف بتوقف نبض الحياة إذ يستمر حتى مع الموت. وهو ما تؤكده المعطيات الاثنوغرافية التي تشير إلى أن طقوس العبور في العائلة التقليدية أداة يستخدمها المجتمع الذكوري، لمراقبة التحولات الكبرى في حياة الفرد، والإشراف عليها وجعلها منسجمة مع معتقدات الجماعة وتصوراتها وتمثلاتها الدينية والاجتماعية، وهو أمر يوحي بما ترسخ في المخيال الاجتماعي من تضاد بين الذكورة والأنوثة، بوصف الإيجابي هو دوما ذكوري، والسلبي هو دوما أنثوي.

إن الإعلاء من قيمة الذكر والحط من شأن الأنثى مقوم أساسي للذهنية الذكورية، التي تعتبر الفوارق بين الرجال والنساء معطى طبيعي إلا هي، وهو تصور ثقافي كوني تشترك فيه جميع الثقافات، بوصف الثقافة المجتمعية صناعة بشرية ذكورية خاضعة للمنطق الأبوي تبخس المرأة حقها وتحط من شأنها وتحيلها إلى كائن ثقافي مستلب وتعلي من قيمة الرجل وتعتبر الذكر أفضل من الأنثى. هذا التصور الثقافي تصور رمزي قابع في صلب الثنائيات التي نصنف بها العالم والتي ترسخت في المخيال البشري نتيجة تراكمات تاريخية ودينية وفلسفية، وأضحت آلية من آليات التفكير بطريقة لا واعية.

المراجع:

- الديالمي عبد الصمد، (2009). **سوسيولوجيا الجنسانية العربية**، ط1، بيروت، دار الطليعة.
- الطوالبي نور الدين، (1989). **الدين والطقوس والتغيرات**، ترجمة وجيه العيني، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.
- بن عبد السلام سهام، (2006). **ختان الذكور بين الدين- الطب- الثقافة- التاريخ**، ط1، القاهرة، رؤية للنشر والتوزيع.
- بوبريك رحال، (2010). **بركة النساء الدين بصيغة المؤنث**، المغرب، إفريقيا الشرق.
- جراد فاطمة، (2015). **العائلة والحياة العائلية بجهة تطاوين**، تونس، المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر .
- خولة الفرشيشي، (2017). **الجسد في الحمام**، ط1، ، تونس، دار نقوش عربية.
- شبل مالك، (2010). **الجنس والحريم وروح السراري- السلوكات الجنسية المهمشة في المغرب الكبير**، ترجمة عبد الله زارو، المغرب، إفريقيا الشرق.
- قرامي آمال، (2007). **الاختلاف في الثقافة العربية الإسلامية دراسة جندرية**، ط1، بيروت، دار المدار الإسلامي.
- منديب عبد الغني، (2006). **الدين والمجتمع- دراسة سوسيولوجية للتدين بالمغرب**، المغرب، إفريقيا الشرق.
- Arnold Van Gennep, (1909), **les Rites de passage**. Paris. Noury.

للإحالة على هذا المقال:
- براهم عصام، زازوي موفق، (2019)، «جدلية الذكورة والأنوثة في العائلة التقليدية من خلال طقوس العبور ». **المواقف**، المجلد: 14، العدد: 02، جوان 2019، ص. ص88- 108.